الصحافة في لبنان... ماضياً وحاضراً

بقلم الاعلامي علي بدرالدين

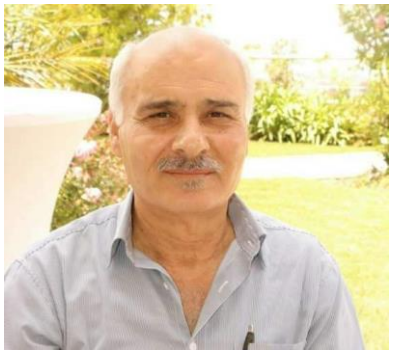

تعاني الصحافة في لبنان حاليا من أزمة بنيوية ووجودية ، بعد ان فقدت بعضا من بريقها وموضوعيتها ودورها الرسالي والوطني، تحت ضغط الحروب والأزمات الاقتصادية والمالية، وتبدد زمن التمويل العربي والسفاراتي، وندرة الاعلانات التي هي روح الجريدة وأساس استمرارها، ولكنه بمثابة طوق سياسي حول رقاب أصحاب الصحف في لبنان، خاصة أنها مؤسسات فردية تجهد لتأمين مداخيل مالية إضافية للاستمرار في الصدور، ولا غنى لهم عن المؤسسات الاعلانية والشركات التجارية العملاقة المملوكة أو الخاضعة للسلطة ،أو لأصحاب النفوذ والمشاريع السياسية، الذين يحولون الاعلان الى قوة جذب سلطوية لصاحب الصحيفة، واخضاعه لشروط سياسية توظف لخدمة مشروعه السياسي، والالتزام بتوجيهاته، وهذا ما يؤكد أن الاعلان في هذه الصحيفة أو تلك، ليس مرتبطا برقم التوزيع، ولا بمساحة الانتشار، لأن الكلفة الفعلية تفوق سعر المبيع خاصة الصحافة السياسية.

والصحافة موجودة في كل المجتمعات الحديثة والاقل حداثة، وحيث الدولة موجودة، ولكن هذا الوجود يختلف بين مجتمع وأخر كماً ونوعاً ودوراً وفاعلية وتأثيراً. وأصبح وجودها ضروريا للدولة والأنظمة والحكام والأحزاب الموالية والمعارضة، ومن يمتلك ناصية الصحافة له القرار والتأثير والفعل والسلطة ،لاسيما بعد أن تحوّلت الى صناعة ومهنة، لها قوانينها وضوابطها، وأن الصحافي هو من اتخذ الصحافة مهنة ومورد رزق، وفق قانون المطبوعات اللبناني.

يقول أحد الصحفيين الروس: أن الجريدة المطبوعة تشبه مستودعاً تجارياً فيه كل انواع السلع والبضائع التي يمكن ان تلبي احتياجات ومطالب وأذواق جميع العملاء، ولكن اصحاب المستودع يصرون على عدم بيع سوى أشياء معينة بالذات، يتحكمون هم في اختيارها وعرضها دون مراعاة لأذواق ورغبات هؤلاء العملاء.

ويقول أحد الصحافيين الفرنسيين: الجريدة كائن حي يتجدد كل يوم وإذا لم يتجدد اصابه الجمود والموت.

تعريف الصحافة

يصعب الاتفاق على تعريف واحد لها فالبعض يعتبرها انتاجا صناعيا وخلقا فكريا في أن واحد، كبيار ألبير. ويقول أدولف اوخس انها مهنة مكرسة للصالح العام ولفضح الألاعيب والشرور وعدم الكفاءة في الشؤون العامة وهي مهنة لا تؤثر الحزبية في ممارستها بل تكون عادلة ومنصفة لأصحاب الأراء المعارضة.

واعتبرها روبير دو جوانفيل السلطة الرابعة في الدولة على اعتبار التقسيم البرلماني الذي جعل سلطات الدولة ثلاثا وهي السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية ثم أضيفت السلطة الصحافية. وهذا التصنيف ينطبق على الصحافة في لبنان حتى أنه قيل أيضاً الصحافة سلطة في كل السلطات وهي قوة من القوى الرئيسية في الدولة. وقال صاحب جريدة النهار النائب والوزير والصحافي الراحل غسان تويني في ذكرى الصحافي عفيف الطيبي صاحب جريدة اليوم سنة ١٩٧١ وكان تويني أنذاك وزيرا للاعلام: نحن في مهنة بعضنا يموت فيها قبل أن يعيشها وبعضنا الآخر لا يموت وإن مات ٠٠٠ان واحدنا متى دخل قدس اقداس المهنة يلد فيها ولها وكأنما في عروقه حبر محل الدم أو كأنما الخبز الذي يطعم أولاده هو هذا الورق الذي ندسمه كل يوم بعصارة قلوبنا وعقولنا وعرق الجبين.

وعن مهمة الصحافة، قال الفرنسي شارل رينيه: لا يجوز التسامح في أي كذب مقصود، يمكن ان ينخدع الصحافي ولكن لا يجوز له أن يخدع سواه فالخطأ انساني والكذب شيطاني. ان رسالة الصحافة شريفة ولكنها خطيرة أيضا وهي تكوين الرأي العام فلا يجوز تضليله بالكذب وحرية الصحافة شيء مقدس شرط ألا تكون حرية الكذب والصحافة أصبحت وسيلة من وسائل السياسة والسياسة لا تعرف أمانة ولا صدقا، ويمكن تقسيم اتجاهات الصحف إلى ثلاثة هي: الملتزمة التي تنطق باسم حزب أو جماعة أو دين والمستقلة هي التي لا تنتمي الى حزب أو جماعة بل نقل الحقيقة من جميع مصادرها هو الهدف الاساسي لها اضافة الى التنوع في موادها والصحافة الرسمية هي التي تشرف عليها الدولة لشرح سياستها وخدمة مصالحها وتعميم اخبارها.

المراحل التاريخية للصحافة

المرحلة القبلية: مراقبة العدو واشعال النار في أماكن مرتفعة وقرع الطبول المناداة. ثم رجل الماراتون الذي يحمل الرسائل الشفهية الى شيخ القبيلة او القائد واصبح تقليدا رياضيا عالميا، والمراسل الذي يحمل الرسائل المكتوبة الى الشخص المعني، استعمال الخيول لسرعتها بنقل الخبر، والخطبة التي اعتمدت كوسيلة اعلامية مهمة لتعبئة الناس ولازالت مستمرة لغاية اليوم لكن بتقنيات حديثة منها مكبرات الصوت والتسجيل على كاسيت وتعميم مضمونها واستعملتها الثورة الايرانية لنقل خطابات قائدها الامام الخميني الى داخل إيران. وفي الجاهلية كانت الخطبة والمعلقات الشعرية بمثابة صحيفة شفهية تتناقلها الاجيال ولا زالت. ومع التطور التدريجي الذي بدأ في دول ومجتمعات لجأت الى المباشرة في الطباعة استفادة منها الصحافة وأول من بدأ بالطباعة هم الصينيون ثم الألمان في حين يشير البعض الى ان الفضل بالاعلام المكتوب يعود الى الفراعنة الرومان الذين هم أول من استعمل صحف الحائط ويذكر أن أول مطبوعة دورية صدرت كانت سنة ١٦٣١واسمها غازيتا ومعناها في اللغة الايطالية الجريدة يعني الرجل الثرثار.

كيف ومتى نشأت الصحافة في لبنان؟

اللبنانيون كانوا أول من مارس الصحافة ان كان في داخل لبنان أو في الخارج العربي والدولي .ويروى أن الجنرال نابليون بونابرت استعان باثنين من اللبنانيين كمترجمين وأنهما اسهما فيما بعد بتحرير أول صحيفة عربية هي التنبيه. وأول لبناني اصدر صحيفة عربية باسمه هو اسكندر شلهوب واطلق عليها اسم السلطنة سنة ١٨٥٧وصدرت في اسطنبول ثم القاهرة. اما ولادة الصحافة العربية في لبنان فكانت على يد خليل

الخوري مع جريدته حديقة الاخبار التي صدرت في بيروت ١٨٥٨ ثم صدرت جريدة نفير سوريا ١٨٦٠ اسسها المعلم بطرس البستاني وكانت تدعو الى الوحدة الوطنية اثر المذابح الطائفية التي حصلت في العام نفسه، وفي عام ١٨٧٠ صدر سبع جرائد ومجلة كالبشير والجنة والجنان والنحلة وغيرها وكانت جميعها تنطق بإسم الطوائف الدينية ودوافعها طائفية ومذهبية ومع مرور الوقت والانفتاح والدعوات الوطنية تحول معظمها الى جرائد وطنية جامعة ولكنها لم تتخلص نهائيا من صبغتها الدينية الطائفية والمذهبية حتى ايامنا هذه غير إنها بدات مع نهاية القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الاولى تناوئ الاحتلال العثماني وتطالب بالاستقلال وتدعو إلى القومية العربية ونشطت وتجرأت اكثر بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ حيث أصبح اصدار الصحف سهلا وظلت على هذه الحال من الحرية لم تشهد مثيلا لها حتى سنة١٩١٤، وإن بعضها لم يتورع عن التشهير بالعثمانيين علنا. هذه الجرأة والحرية لم يدوما طويلا وأدت بهما الى المشانق حيث انتقم الاتراك من عدد من الصحفيين اللبنانيين خلال الحرب وأعدموا منهم ١٦ صحفيا سنة ١٩١٦.

٠قانون الصحافي العثماني

بعد أحداث ١٨٦٠ الطائفية في جبل لبنان وجدت الدول الكبرى فرصتها لاقامة نظام سياسي جديد لجبل لبنان الذي اصبح فيما بعد متصرفية مستقلة تابعة مباشرة للباب العالي مما ساهم في جذب الارساليات الغربية وفتح المدارس وتأسيس المطابع وإصدار النشرات والجرائد والمجلات ما أثار الريبة لدى السلطات العثمانية ولم تتأخر في وضع القيود أمام الصحافة الناشئة وخاصة انه لم يكن قبل سنة ١٨٦٤ أي قانون للصحافة لا في لبنان ولا في البلدان الخاضعة للسيطرة العثمانية وكانت المطبوعات تخضع لنظارة أو وزارتي المعارف والداخلية في اسطنبول. وفي سنة ١٨٦٤ في عهد السلطان عبد العزيز صدر قانون جديد للصحافة حدد الشروط المطلوبة للحصول على إذن بإصدار مطبوعة مما اثر سلبا على اصدار مطبوعات جديدة أو حتى تجديد وتطوير الموجود منها، غير أن هذا الوضع لم يدم طويلا ولم تحد الاجراءات التي اتخذها العثمانيون من الاهتمام بالسياسة التي كانت الصحافة بوابتها وساهم بهذه الاندفاعة إلى الفضول السياسي وخاصة للطبقات الميسورة وجود الارساليات وفتح المدارس وتأسيس الجمعيات وبداية انهيار العثمانيين بعد هزيمتهم في الحرب العالمية ووصفها بالرجل المريض الذي يحتضر. وفي عهد الانتداب الفرنسي على لبنان الذي بدأ سنة ١٩١٨ واستمر الى ما بعد أن نال لبنان استقلاله سنة ١٩٤٣، فأضيفت الى المطبوعات الصادرة جريدة لبنان الكبير الرسمية سنة ١٩٢٠ ولبنان الكبير الرسمية بالفرنسية سنة ١٩٢١ ثم النشرة الرسمية للأعمال الادارية للمفوضية العليا الفرنسية سنة ١٩٢١ وكذلك الجريدة الرسمية للجمهورية اللبنانية سنة ١٩٢٦ الانتدابية ونفس الجريدة باللغة الفرنسية وفي عهد الاستقلال سنة ١٩٤٣ صدرت الجريدة الرسمية ولم تزل. وبعد الاستقلال كرت سبحة إصدار المطبوعات بتراخيص رسمية حتى تجاوزت الالف مطبوعة يومية واسبوعية وشهرية وفصلية وسياسية وغير سياسية. لكن اصدار الصحف السياسية توقف سنة ١٩٥٣ عملاً بالمرسوم الاشتراعي رقم ١٧٤ الصادر في ١٣ نيسان في عهد رئيس الجمهورية الراحل كميل شمعون الذي قضى بتحديد عدد المطبوعات السياسية اليومية في لبنان بحيث لا يعطى أي امتياز سياسي يومي أو اسبوعي أو شهري مهما كانت الأسباب وبذلك استقر عدد الامتيازات السياسية على ١١٠ مطبوعات ولا زال مفعول هذا المرسوم ساريا لغاية اليوم. وخلال الحرب الاهلية سنة ١٩٧٥ توقفت بعض الصحف عن الصدور المؤقت والدائم في حين صدرت اخرى ليستقر عددها على ١٢

صحيفة هي النهار والسفير والديار والبناء واللواء والجمهورية والشرق ونداء الوطن والبلد والانوار والمستقبل والبيرق ومع تفاقم الأزمة المالية والاقتصادية وانعدام الدعم المالي الداخلي والخارجي للصحف توقفت النهار عن الصدور الورقي كما توقفت نهائيا المستقبل والسفير والانوار والبلد في حين خفضت الصحف الصادرة من عدد صفحاتها وموظفيها وقد لا يطول الوقت للصدور الكترونيا أو التوقف النهائي للاسباب ذاتها التي ادت الى توقف من سبقها من الصحف السياسية ال ١١٠ الحاصلة على تراخيص وامتيازات سياسية لغاية ١٩٥٣ ولم يعد يصدر منها سوى سبع صحف لغاية سنة ٢٠٢٠ وهي: الأخبار والبناء والديار واللواء والشرق ونداء الوطن والجمهورية.

من يملك الصحافة السياسية؟

هناك ما يقارب الاربعين حزبا وشخصية سياسية واعلامية في لبنان يسيطرون على قطاع الصحافة السياسية وشراء امتيازاتها من اصحابها الاساسيين أو من ورثهم او من اشتراها منهم ثم باعها وربح فيها وخاصة بعد ان راج سوق بيع وشراء امتيازات الصحف السياسية لقلة عددها وندرة وجودها من دون ان يصدرها مخالفا القانون٠ وتتوزع ملكية الصحافة السياسية كالآتي.

ست مطبوعات سياسية يومية واسبوعية مملوكة من شركات عائدة لآل الحريري منها ٠.صحف المستقبل والسياسة وصوت العروبة والحياة الدولية والحديث ولوماتا اسبوعيتان٠وحزب الله يملك امتيازين اسبوعيين هما البلاد والانتقاد. وتملك حركة أمل امتياز سياسي الزمان واسبوعية العواصف. الحزب التقدمي الاشتراكي يملك اسبوعية هي الانباء مسجلة باسم مالكها وليد جنبلاط. اما الحزب الشيوعي اللبناني يمتلك ثلاثة امتيازات هي: الطريق الشهرية والنداء التي كانت تصدر مرة يومية واخرى اسبوعية والاخبار اليومية والمسجلة باسم سعدالله مزرعاني ومؤجر امتيازها للصحافي ابراهيم الامين وهناك مطبوعة الثقافة الوطنية التي ذكر أنه اشتراها النقيب ملحم كرم.

وتملك منظمة العمل الشيوعي صحيفة بيروت المساء المسجلة بإسم محسن ابراهيم واسبوعية الحرية التي كانت تصدرها المنظمة فهي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. الحزب السوري القومي الاجتماعي يملك امتيازين هما البناء يومية وصباح الخير اسبوعية. ويملك حزب البعث العربي الاشتراكي بجناحيه في لبنان ثلاثة امتيازات هي. بيروت والأحرار والراية يومية. ويملك حزب القوات اللبنانية النجوى الاسبوعية وتلغراف بيروت وريفاي تصدر بالفرنسية ولحزب الكتائب جريدة العمل يومية.

ومن الشخصيات ورجال السياسة والأعمال الذين يملكون تراخيص مطبوعات سياسية رجل الأعمال عصام فارس وله رقيب الأحوال يومية والجمهور الجديد اسبوعية ٠واشترى الرئيس نجيب ميقاتي امتياز جريدة الوطن اليومية ثم باعه وهي تصدر حاليا ومالكها ميشال مكتف الذي كان صهر الرئيس امين الجميل ٠اما الرئيس الراحل عمر كرامي كان يملك الرقيب الاسبوعية وكذلك يملك رئيس المردة سليمان فرنجية اسبوعية صدى الشمال ٠والنائب ميشال المر يملك اسبوعية الحركة في حين ان نجله الياس المر يملك الجمهورية اليومية التي تصدر حاليا ٠ويملك النائب السابق باسم السبع امتياز الهدى اليومي ورئيس حزب الحوار الوطني النائب فؤاد مخزومي يومية الحوار ورئيس حزب الاتحاد النائب عبد الرحيم مراد يملك القلم الصريح والصحافي حسن صبرا الشراع ورئيس حزب السلام روجيه اده فيملك يومية لسان الحال وكان

الرئيس الراحل كامل الاسعد يملك يومية الرابطة واسبوعية الشرقية وكانت يومية صدى لبنان المسائية لنقيب الصحافة الراحل محمد البعلبكي والكفاح العربي اليومية والاحد الاسبوعية لنقيب الصحافة الاسبق الراحل رياض طه ٠ولا ننسى آل تويني وفريحة وطلال سلمان الذين بنوا امرطوريات صحفية ذاع صيتها وطارت شهرتها عربيا وعالميا ومن لا يذكر صحف النهار والسفير والانوار الذين كانوا بمثابة الغذاء اليومي للقراء ويجب ان نحيي اصحاب الصحف الذين ما زالوا يعاندون ويتحدون الظروف الصعبة ويصرون على الصدور وهم من الصحف السياسية القليلة الباقية حية كجريدة اللواء لال سلام والشرق لال الكعكي والديار لشارل ايوب ٠

٠المطبوعات غير السياسية

كما بات معلوما ان المرسوم الاشتراعي الذي صدر سنة ١٩٥٣ وقضى بعدم إعطاء تراخيص سياسية لم يشمل إعطاء تراخيص للمطبوعات غير السياسية يعني الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والبيئية وغيرها التي شهدت اقبالا غير متوقع مع ان معظمها لم يصدر ويقال انها قاربت ال١٥٠٠ ترخيص يصدر منها ما يقارب العشرين مطبوعة وبشكل متقطع احيانا ٠

وحصلت ٢٧ وكالة اخبار يومية على تراخيص وامتيازات سياسية لتضاف الى الوكالة الوطنية للاعلام الرسمية في نقل الأخبار والاحداث اليوميه ولكنها توقفت عن الصدور كنشرات ورقية كانت توزع على وسائل الاعلام والسفارات والوزارات والمؤسسات الرسمية والمقرات الرئاسية وتحولت حاليا الى الكترونية وفقدت دورها في تزويد مشتركيها بالاخبار السريعة والعاجلة امام وسائل التواصل الاجتماعي على انواعها ٠

الصحافة في لبنان خلال حرب سنة ١٩٧٥ وبعدها

عانت الصحف اللبنانية التي استمرت بالصدور في هذه الحرب أو عادت وصدرت بعد انتهائها من ظروف صعبة سياسيا واقتصاديا وماليا وامنيا ومن الصراع الطائفي والمذهبي والقتل على الهوية وقطع اوصال بيروت والمناطق وتوقفت كليا او جزئيا وسقط منها شهداء مما انعكس سلبا على أدائها وموضوعيتها وتوازن اخبارها بين القوى الحزبية والطائفية المتقاتلة وخسر المواطن في اي جهة كان و لأي فئة انتمى او اكره عليه الصحافة التي كانت بالنسبة اليه مراته وصوته وتحمل وجعه وحرمانه من حقه بالأمن

والاستقرار والحرية والعمل وكل حقوقه الى حيث يجب ان تصل ولكن الحرب اخذت منه هذه الحقوق كما أخذت روحه وسرقت منه احلامه وكل امل بالغد الأفضل ولم يعد هو الحدث بل اصبح قتله مجرد خبر عادي جدا في سياق تعداد القتلى والجرحى ولأن الصحافة تفرغت وصفحاتها القليلة جدا الى الحرب وتداعياتها التدميرية والتهجيرية وعمليات الخطف والقتل على الهوية وعلى حركة الموفدين العرب والأجانب والمفاوضات والتسويات والدعوات عبثا الى وقف إطلاق النار الذي دام طويلا وخلف الضحايا والمعوقين والمهجرين والمشردين والأسوأ من ذلك الانقسام الطائفي والمذهبي والاحقاد والذي لا يزال مستمرا والشعب يعيش فصوله وفساده وحل مكان الصراع السياسي البناء الذي يحفز على السباق لقيامة وطن وبناء دولة ومؤسسات. عن واقع الصراع الطائفي والمذهبي قال ناشر جريدة السفير الاستاذ طلال سلمان في محاضرة له: طالما غاب العمل السياسي والصراع السياسي والصراع الفكري والعقائدي والصراع الطبقي سيستمر غياب الصحافة أو تردي الموجود منها. بكل بساطة السياسة هي التي تجدد الدم في شرايين الصحافة ومن دون سياسة يسود التصنيف الطائفي والمذهبي وتصبح المحاسبة على الاسم لا على مضمون الكتابة أو استهدافاتها وبألتالي تخرج الصحيفة ويخرج الصحافي ويخرج الموضوع من الموقف السياسي الى الموقف الشخصي والطائفي والمذهبي. يضيف: طالما استمر مناخ الحرب الاهلية مهيمنا فلن تتجدد السياسة ولن تستطيع الصحافة لعب دورها الطبيعي في المجتمعات الاخذة بالديمقراطية. وفي مثل هذا المناخ تضمر السياسة ويقفل الوطنيون ابوابهم على انفسهم خشية أن يصابوا بلوثة الطائفية وبالتالي الدم. والتراجع في دور الصحافة السياسية تجسد بلغة الارقام من خلال دراسة صدرت سنة ١٩٩٥ حول نسبة قراء الصحف في لبنان وخلصت إلى أن ٥٢ بالمئة من اللبنانيين لا يقرأون و٢٢ بالمئة قراء موسميون و٢٦ بالمئة قراء دائمون و٦٩ بالمئة من الذكور و٣١ بألمئة من الأناث. المستوى التعليمي لقراء الصحف ١٠ بالمئة ابتدائي و٢٠ بالمئة متوسط و٣٣ بالمئة ثانوي و٣٧ بالمئة جامعي ومناطق القراء ٦٧ بالمئة من المدينة و٣٣ بالمئة من الأرياف. وظيفة القراء عاطل عن العمل ٣ بالمئة ومتقاعد ٣ بالمئة اختصاصي ورجل اعمال ٧ بالمئة وطالب ٧ بالمئة ربة منزل ١٤ بالمئة وعامل ١٢ بالمئة وتاجر ١٧ بالمئة وموظف ٣٧ بالمئة.

صحافة الحرب

صدرت في الحرب اللبنانية التي بدأت سنة ١٩٧٥ مطبوعات ونشرات سياسية يومية واسبوعية غير مرخصة رسميا ومخالفة للقانون باسم الأحزاب الموجودة والميليشيات المستجدة وفتحت قنوات تلفزيونية ومحطات اذاعية في مختلف المناطق اللبنانية أثرت على المطبوعات المرخصة وأخذت حيزا من دورها وتمويلها وظلت تصدر حتى نهاية الحرب وبدء سريان بنود اتفاق الطائف الذي وضع الشروط والضوابط التي تسمح بتنظيم الإعلام المكتوب والمرئي والمسموع والذي شدد على الالتزام بقانون المطبوعات اللبناني الذي صدر سنة ١٩٦٢ لتنظيم مهنة الصحافة مع تعديلات الطائف.

الصحافة وكورونا

انعكست جائحة كورونا بشكل واضح على الصحافة المكتوبة ان لناحية التوزيع والبيع أو لناحية التمويل جراء الازمة الاقتصادية والمالية العامة واقفال كل القطاعات الإنتاجية والمصارف التي حجزت وسطت

على اموال المودعين من اللبنانيين واصحاب الصحف منهم مما افقد الصحف التمويل الاعلاني الذي أساسا كان يحتضر وفرض على الصحف كما غيرها من الشركات والمؤسسات الى تخفيف الانفاق على حساب الموظفين الذين قبلوا مرغمين الاقتطاع من رواتبهم ثم فقدانها لعجز اصحاب الصحف عن الالتزام بعقود العمل. وأدت الازمة الاقتصادية وكورونا الى اقفال صحف السفير والمستقبل والبلد والبيرق والانوار ثم الدايلي ستار التي كانت تصدر باللغة الإنكليزية. في حين ان الصحف التي اصرت على الصدور ألغت صفحات او توقفت عن الصدور الورقي وتحولت الكترونية كجريدة النهار العريقة وقد تلحقها صحف اخرى أو تأخذ قرار الاقفال الصعب وقد اقترب موعد تنفيذه لان الازمة الاقتصادية والمالية الى تفاقم ووقف ضخ المال الخليجي وموت الاعلان الذي هو روح الصحيفة اضافة الى سيطرة وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة على انواعها على عقول واهتمام كل الشرائح الاجتماعية والفئات العمرية وسرعة تلقيها الاخبار وأي حدث عالمي في لحظته حتى ان مئات المواقع الالكترونية الخاصة والعامة تنتشر الأخبار العاجلة وتحلل وتجري المقابلات الصحافية واصبحت بديلا عن الصحف السياسية التي تنشر الاخبار والاحداث في اليوم التاني مع انها تنشر اخبارها على مواقعها حتى الصحيفة كاملة ما انعكس على البيع حيث تتكدس في المكتبات ولم تعد موضع اهتمام القراء الا القليل منهم.

الصحافة والمال العربي

ظلت الصحافة السياسية صامدة في مواجهة الحروب والأزمات حتى سنة ٢٠٠٠ لاسباب واعتبارات اقتصادية وسياسية ومالية وأمنية وعسكرية استجدت على الواقع العربي الخليجي تحديدا اضافة الى ما التطور التكنولوجي الذي يشهده العالم كله انعكس على الصحافة العربية عموما وعلى الصحافة في لبنان خصوصا حيث جفت منابع الضخ المالي لها وتبدلت التحالفات وتعددت الولاءات العربية والاقليمية والدولية وخسرت الصحافة أو البعض منها رافدا تمويليا عربيا كبيرا خاصة وان الصحافة في وصفت بأنها برلمان العرب وفق ما قاله الصحافي اللبناني جورج سكاف في حين قال اخرون: أن الصحافة في لبنان هي القوة الوحيدة التي تستطيع أن تضرب في اعماق أي بلد عربي، ان لبنان هذا البلد العربي الأصغر والأقل غنى بفضل صحافته الحرة استطاع أن يحتل مركزا مرموقا عربيا ودوليا. وقال البعض من مسؤولي ومواطني وصحافيي دول خليجية اننا نقرأ الصحافة اللبنانية لنعرف ما هو جار عندنا، وخير لك أن تكون الصحافة اللبنانية معك من ان تكون ضدك ومهما كلف الثمن. ويذكر للدلالة على ذلك ان رئيس الجمهورية الراحل شارل الحلو وكان صحافيا ومسجلا على الجدول النقابي عندما استقبل وفد نقابة الصحافة أنذاك في قصر بعبدا رحب بهم بعبارته المشهورة أهلا بكم في وطنكم الثاني، وكان يقصد ويدرك ما يقول لأن الصحافة في لبنان تحولت إلى منبر للعرب المختلفين والمتصارعين دائما.

عاشت الصحافة عصرها الذهبي في ظل سياسة الاحتواء والمال العربي، غير ان هذا العصر توقف به الزمن عند بداية الحرب الاهلية سنة ١٩٧٥ وحلت مكانه سياسة المواجهة وتم تحميل الصحافة مسؤولية الأزمات الناشئة والمستجدة.

وللتدليل على حجم التمويل العربي للصحافة التقرير الذي تم تداوله عن الانفاق الاعلاني في الدول العربية الذي صدر سنة ١٩٩٣ حيث بلغ مليار دولار منها ٨٠٠ مليون دولار في أيدي لبنانيين بواسطتهم أو في

عهدتهم. ان موازنة الانفاق الاعلاني في لبنان ما بين العامين ١٩٩٣ و١٩٩٥ تراوحت ما بين ٥٠ و١٠٠ مليون دولار و حصة الصحافة فيها بلغت ١٢ مليون دولار وذلك في اعوام ١٩٩١ و١٩٩٢ و١٩٩٣ وارتفعت حصتها سنة ١٩٩٥ لتصل الى ٢٠ مليون دولار من اصل موازنة ١٠٠ مليون دولار.

الصحافة والحرب

نشأت في سنوات الحرب عشرات الصحف والمجلات والنشرات والاقنية التلفزيونية والإذاعات من دون تراخيص مستفيدة من الفوضى وغياب القانون في حين ان صحفا ومجلات قانونية وعريقة توقفت عن الصدور بسبب الاخطار الناتجة عن الحرب. ٠والملاحظ في تلك المرحلة ان اصدار المطبوعات على اختلافها كما وسائل الإعلام المرئي والمسموع لم يقتصر على العاصمة بيروت بل شمل معظم المدن والمناطق وكانت جميعها تنطق بإسم الطوائف والمذاهب والأحزاب مما اثر سلبا على الصحافة المرخصة والقانونية كما غيرها من وسائل الاعلام في التوزيع والتمويل الاعلاني والخاص بحيث ان مروحة الموازنات المقررة توسعت لتشمل الجميع بعد ان تحولت صحافة الحرب الى امر واقع وفرضت وجودها على الساحة الاعلامية وحتى العربية٠وشهدت مرحلة صحافة الحرب التي تحولت إلى ظاهرة لافتة وانتحال صفة الصحافي حيث تنتفي فيه شروط مهنة الصحافة وفق قانون المطبوعات اللبناني. هذه الحالة الشاذة دفعت البعض من الصحافيين المحترفين الى التساؤل ٠.كيف يمكن أن نتصور مجتمعا يواجه مع مطلع كل شمس ٢٠ صيغة لخبر واحد ولواقعة واحدة وترويها اكثر من عشرين صحيفة يومية. ونتساءل اليوم كيف نواجه مئات الاخبار الصادرة عن كل وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة في كل ثانية ودقيقة وبصيغ غريبة وعجيبة تفتقد الى الدقة والمصداقية والمهنية بطبيعة الحال والهدف منها. ورحم الله صحافة زمان.

ماذا تعني الصحافة الصفراء؟

هذا النوع من الصحافة وفق ما هو متعارف عليه اصطلاح يطلق على الصحف التي تهتم بنشر الاخبار المثيرة التي تخاطب في القارئ غرائزه ومجال هذه الصحافة نشر الفضائح وأخبار الجنس والجريمة ويوميات المشاهير وصورها الاباحية. وتعود تسمية الصحافة الصفراء الى سنة ١٨٨٣ حيث كانت صحيفة وورلد الأميركية الرائدة في هذا المجال وقد تخصصت بنشر الفضائح والأسرار الخاصة واخبار الجرائم والجنس.

وكان ريشارد بلاتون قد أبدع شخصية كارتونية في الصحافة الاميركية هي شخصية الولد الأصفر وجذب الى جانب قصصه الاسبوعية ملايين القراء وهكذا ولد مصطلح الاصفر في الصحافة العالمية٠وتوسع مفهوم هذه الصحافة ليشمل الممارسات القائمة على اساس الابتزاز في العمل الصحفي واختلاق القصص المثيرة والمسيئة وتحريف الكلام عن حقيقته بقصد الإثارة وان كان على حساب الغير وادعاء العلم بالشيء في محاولة تشويه الأخرين والترويج للأكاذيب والخرافات والهدف من كل هذه الإثارة رفع مبيعاتها باستعمال أرخص ألأساليب وأحطها. هذه الصحافة على عكس ما يعرف بالصحافة الملتزمة والمعروفة بصحافة الإلتزام بالمجتمع هذا النوع من الصحافة لا ينشر الا ما هو مفيد ويخدم المجتمع وليس فيه رجل عض كلبا بل كلب عض رجلا بقصد ان هناك انسانا تضرر ويحتاج إلى مساعدة.

قانون وجرائم المطبوعات

صدر قانون المطبوعات اللبناني سنة ١٩٦٢ لتنظيم مهنة الصحافة والشروط المطلوبة لإصدار المطبوعات الصحفية. وحدد القانون من هو الصحفي هو كل من اتخذ الصحافة مهنة ومورد رزق.

ويعتبر نشر المعلومات الممنوعة ووقائع دعاوى القدح والذم والتقارير والكتب والرسائل والأنباء المنافية للأخلاق والآداب العامة والأخبار الكاذبة والقيام بعمليات تهويل جريمة من جرائم المطبوعات يعاقب عليها بالحبس أو الغرامة أو الاثنين معا حسب ما حدده الباب الثاني من قانون المطبوعات اللبناني الصادر سنة ١٩٦٢ والمعلومات الممنوع نشرها هي وقائع التحقيقات والمحاكمات السرية أو التي تتعلق بالطلاق والهجر والبنوة الطبيعية والرسائل والاوراق والملفات العائدة للادارات العامة الموسومة بطابع سري واذا نشرت تعرض سلامة الدولة وأمنها الداخلي والخارجي للخطر.

ومن جرائم المطبوعات تحقير الديانات المعترف بها في البلاد وكل ما من شأنه أثارة النعرات الطائفية والعنصرية أو ما تتضمن ذما أو قدحا أو تحقيرا بحق رئيس دولة أجنبية والمسؤولية المباشرة على جرائم المطبوعات تقع على المدير المسؤول وكاتب المقال أو أحدهما.

نقابة الصحافة

في السابع من شهر تشرين الأول سنة ١٩١١ اجتمع عدد من الصحافيين من اجل تنظيم مهنة الصحافة وشكلوا لجنة للمتابعة وللمباشرة بوضع القانون الأساسي للنقابة التي تمت الموافقة عليه ثم اقراره وأعلنوا عن تأسيس جمعية الصحافة كفرع لجمعية الصحافة العثمانية في اسطنبول وتابعة مباشرة لها وفي سنة ١٩١٩ ولدت نقابة الصحافة الأولى برئاسة رامز سركيس تلاه وديع عقل رئيسا لغاية سنة ١٩٢٨ ثم تشكلت لجنة لتنظيم المطبوعات ووضع قانون خاص بها وأعلن عنه سنة ١٩٤٢ وتولى رئاستها عدد من الصحافيين وأصحاب الصحف ونقيب الصحافة الحالي الاستاذ عوني الكعكي صاحب جريدة الشرق ثم تأسست نقابة صحافة الشمال وجمعية مراسلي الصحافة الاجنبية ونقابة محرري الصحافة اللبنانية واصحاب الصحف ونقابة المصورين اللبنانيين والانتساب الى الجدول النقابي خاضع لمنظومة التحاصص الطائفي والمذهبي والحزبي فنقيب المحررين لا يتغير الا في حالة الوفاة، فالنقيب الراحل ملحم كرم بقي نقيبا من ١٩٦٠ لغاية ٢٠٠٧ اما نقيب الصحافة أما نقيب الصحافة الراحل محمد البعلبكي الذي ترأس النقابة بعد اغتيال النقيب الراحل رياض طه بقي نقيبا من ١٩٨٠لغاية ٢٠٠٧ وتسلم نقابة المحررين بعد كرم النقيب الياس عون ويرأسها حاليا النقيب جوزيف قصيفي.

وكثيرون تم قبول انتسابهم في نقابة المحررين ولا علاقة لهم بمهنة الصحافة ويرفض الذين يمارسون المهنة ولديهم المواصفات والمستندات المطلوبة. ويبدو انه بعد النقيب كرم فتحت النقابة مجال الانتساب امام الصحافيين الذين يملكون المؤهلات والمواصفات التي تخولهم الانتساب الى الجدول النقابي.

الرقابة على الصحافة

لم تكن الرقابة على الصحافة أداة فقط من ادوات اخماد حريق الاثارة الاعلامية ولكنها كانت ايضا وفي ذاتها أداة من ادوات اتهام الصحافة بمسؤوليتها الكلية أو الجزئية عن هذه الاثارة.

بعد انتهاء حرب السنتين ١٩٧٥- ١٩٧٧ واستنادا إلى الصلاحيات التشريعية التي حصلت عليها الحكومة من مجلس النواب في كانون الأول ١٩٧٦ كان أول مرسوم اشتراعي أصدرته الحكومة في ١-١-١٩٧٧ هو المرسوم الذي ينص على فرض الرقابة الحكومية على الصحف بواسطة المديرية العامة للامن العام. هذا المرسوم الذي ألغي في ٢٨-١-١٩٨٦ يلقي الضوء على الموقف من الصحافة اللبنانية بوصفها عاملا من العوامل المثيرة الملفتة ليس في لبنان انما في المنطقة العربية أيضا.

وصدر المرسوم رقم واحد بفرض الرقابة ومعظم الصحف متوقف عن الصدور وخلال الفترة الممتدة من ١٨-١٢-١٩٧٦ لغاية ٤-١-١٩٧٧ لم تكن تصدر سوى ثلاث صحف فقط. وبعد صدور المرسوم استأنفت الصحف الصدور مع الخضوع للرقابة والمرسوم رقم واحد هو أول اجراء نفذه رئيس الجمهورية الأسبق أمين الجميل سنة ١٩٨٣ من خلال مدير الأمن العام زاهي بستاني اعتقادا منه بأن التنفيذ الصارم للمرسوم يمكن أن يريح لبنان وبعض الدول العربية التي تشكو مما تنشره بعض الصحف اللبنانية. وفرض على الصحافة الرقابة الحكومية والرقابة الذاتية وفي الرقابتين لم تخف حدة الفتنة ولم تتراجع الميليشيات المتناحرة عن مواقفها المتطرفة وعلى العكس فإن مزيدا من الصحف والمجلات غير المرخصة صدرت ونافست المطبوعات المرخصة واصبح لكل تنظيم مطبوعاته ومحطته التلفزيونية واذاعته حتى اطلق عليها تسمية صحافة الطوائف والصحافة الحزبية والمليشياوية والمناطقية.

وناضل الصحافيون لالغاء الرقابة المسبقة على الصحافة ونجحوا بعد سنوات على ان تحل محلها الرقابة الذاتية والمسؤولية القانونية كما نجحوا في ابطال تعطيل الصحف ومنع السجن الاعتباطي والتوقيف الاحتياطي.

حرية الإعلام

ان ادوات التضييق على حرية الاعلام هي ذاتها في كل مكان وزمان منها فرض قيود وشروط مسبقة كالرقابة والتعطيل والغرامات والسجن وغيرها. والحرية في ممارسة الاعلام على انواعه امر مهم جدا وشرط الاعلام الناجح هو توفر الحرية وشرطها ان تمارس بوعي ووفق مقاييس وضوابط ذاتية واجتماعية عامة للسبق الصحفي أو لأي خبر او حدث وهو جهد مشروع ومن اهم عناصر الصحافة أو الاعلام بشكل عام ولكنه مشروط بضوابط منها التدقيق والصدق في نقل الأخبار والاحداث قبل نشرها والتشويش على الرأي العام لأن هدف الاعلام الخير العام ونشر المعرفة واعلان الحقيقة وهذا للأسف معدوم نهائيا ومن النادر ان تجد إعلاميا وصحافيا يلتزم بالضوابط الأخلاقية والقانونية المهنية، ولا دورا ايجابيا للخبر المدفوع ثمنه لأن اي صحافي او صحيفة أو غيرها من وسائل الإعلام ستتحول إلى اسيرة للمال غير المشروع يسقط مبرر الاستمرار في الصدور والمهنة وان استمرت تتحول الى مجرد نشرة تنطق باسم مصادر التمويل ولا علاقة لها بألاعلام.

مستقبل الصحافة

تعاني الصحف كثيرا من تراجع القراء والتوزيع ومن الخسائر المادية المترتبة على ذلك ليس فقط الصحف اللبنانية بل معظم صحف العالم بدأ هذا التراجع مع تطور الاعلام المرئي والمسموع والفضائيات التلفزيونية التي باتت مصدرا سريعا للخبر ومباشرة فضلا عما تبثه من برامج متعددة وفي مختلف القضايا ترضي الاذواق وتشبع نهم الشخص في الاطلاع والمعرفة ولم يعد مضطرا لانتظار صدور الصحيفة ليعرف ما حدث في اليوم السابق. وكذلك فان وسيلة الاعلام المسموعة تزوده بالاخبار السريعة والعاجلة التي يود سماعها٠ والاشد تأثيرا وزاد مع تراجع قراء الصحف هو الانترنت وملحقاته من وسائل التواصل الاجتماعي التي باتت تنقل وتوزع الاخبار صوتا وصورة في لحظتها وبات كل شخص يحمل هاتفا أو اخواته صحافيا من دون ان يتقن مهنة الصحافة والاطلاع على مختلف الصحف التي تحاول اللحاق بقطار التطور التكنولوجي المذهل ومحاولة الوصول للقارئ عبر متابعتها للخبر أو الحدث الكترونيا وهذا بطبيعة الحال انعكس على الصحيفة الورقية ولم يعد فيها شيء لجذب القارئ في اليوم التالي.

ومثالا على تراجع توزيع الصحف في الولايات المتحدة، فإن توزيع الصحف فيها انخفض من ما يقارب ٦٣مليون نسخة سنة ١٩٨٥ الى ٥٥مليون نسخة سنة ٢٠٠٢ وهذا الانخفاض كبير ويثير القلق حول وضع الصحافة في المستقبل غير البعيد وفق ستيف هوينيش وهو واحد من كبار رجال الصحافة في اميركا والذي قال: ان حال هذه الصناعة العملاقة سوف يكون أشبه بحال الديناصور الكسيح ٠ويقول زميله جان سكويارز في لقاء سنة ٢٠٠٤: لقد ماتت بالفعل الجرائد المطبوعة،لذا ينبغي على صناعة الصحافة أن تركز تركيزا شديدا على النشر الالكتروني ٠وهذا ما يحدث بالفعل حيث تعتمد الصحافة في لبنان مثلا على النشر الالكتروني كليا أو جزئيا مع الاستمرار في الصدور الورقي المتواضع حجما بحيث اقدمت على تقليل صفحاتها والاستغناء عن موظفين وصحافيين وتخفيف النفقات علها تستمر ربما لوقت اطول لأن ما يشهده لبنان من تفاقم في أزماته الاقتصادية والمالية والاجتماعية وفي طغيان وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة على انواعها وقد انعكس ذلك ليس على الصحف فقط بل على المحطات التلفزيونية والإذاعات التي انخفض كثيرا حجم المشاهدين والمستمعين كما قراء الصحف.

على رغم التشاؤم حول مستقبل الصحافة المطبوعة وتراجعها المقلق امام الصحافة الرقمية، لا بد من امل لانقاذ هذه الصناعة العملاقة قبل أن تتوارى وتختفي. وهل الصحافة المكتوبة في لبنان والعالم قادرة على الصمود والاستمرار بالصدور في ظل التحولات والتحديات التي تواجهها من الانترنت وبقية وسائل الإعلام والتواصل التي باتت وحدها مصدر الخبر والمعلومة والسعادة للبشرية. ولا بد من انتظار ما يحمله المستقبل من تقدم هائل ومتسارع في مجالات العلم وتكنولوجيا الاتصال.

شهداء الصحافة وفق بيان لنقابتي الصحافة والمحررين هم: سعيد فاضل عقل، الشيخ احمد حسن طبارة، عبد الغني العريسي، جرجي زيدان، الشيخان فيليب وفريد الخازن، الشقيقان توفيق وانطوان زريق، محمد المحمصاني، عبد الكريم الخليل، عمر حمد، بترو باولي، نسيب المتني، غندور كرم، فؤاد حداد، كامل مروة، ادوار صعب، سليم اللوزي، وسيم تقي الدين، مسعود يعقوب الحويك، محمد حوماني، ايليا أبو الروس، توفيق غزاوي، بهيج متني، عاصم شريف بدرالدين، حسين مروة، سهيل طويلة، جورج سمرجيان، حنا مقبل، ريمون قواص، توفيق يوسف عواد، خليل الدهني، ونصرت توفيق خريش، احمد حيدر، بهجت دكروب، عدنان عبد الساتر، طلال رحمة، نايف شبلاق، الياس لالا، نجيب عزام، سعيد فخرالدين، فابيان

توما، نعمت سباعي، جيزيل زيتون، موسى محفوظ، يحيي الحازوري، انطوان ملاخية حرب، وسيدة نعيم الخوري، بلال ضاهر، حسن فخر، حسن السيد علي بزون، وجبران تويني، جورج حاوي، سمير قصير، ونقيب الصحافة الراحل رياض طه.